زاوية الأدب

دراسة نقدية

للدكتور / نبيل خالد أبوعلي

من حصاد الأدبيات المحلية .

" البحر و الصياد " للقاص / عثمان أبو جحجوح

** الحلقة الأولى **

كنت قد كونت رأيا خاصا إزاء التجمعات الأدبية ووسائل النشر المحلية ، و التي أخص منها بالذكر في هذا المقام الصفحات الأدبية في صحفنا و مجلاتنا المحلية ، وقد عبرت عن رأيي هذا في أكثر من دراسة و مقال صحفي ، و الأمر هنا جد مختلف ، فلهذه الصحف و المجلات يعود الفضل في التنبيه على السمين من خلال ما يحيط به من الغث ، و قديما قالوا : " بالأضداد تتضح الأشياء " لذلك ليس للمهتمين بالأدب مبرر في إعراضهم عما ينشر في الصحافة المحلية ، سواء أكان أصنافا من اللاأدب الذي ينبغي إظهار مبررات إخراجه من دائرة الأدب ، ومحاربة إنتشاره لكي لا يفسد الذوق العام ، أو من الأعمال الأدبية الجيدة التي تستحق الجمع و الدراسة .

ومن خلال متابعتي للحركة الأدبية المحلية في السنوات الست الأخيرة وقفت على صنوف من المنشورات المتشبهة بالأدب ، و أجريت عليها دراستين ، الأولى كانت بعنوان " اللاشعر " و قد تم نشرها ، أما الأدب الجيد الذي يستحق الدراسة فقد جمعت منه ألوانا تحتاج الى أكثر من جهد ، ومما لفت نظري و أثار إهتمامي بعض ما نشر من أعمال الكاتب عثمان خالد ، حيث جسد فيه واقع شريحة غير مذكورة المكانة في مجتمعنا الفلسطيني عامة ، و الغزي بصفة خاصة ، وهو واقع الصياد الغزي و علاقاته البرمائية .. وتثير قراءة هذه القصص وهي : هجرة النورس الخريفية ، الفنار ، السردين المر ، آخر حقائق غرق البحار سعيد ، التشتر .. عددا من التساؤلات ، قد يكون أهمها : لماذا أقدم عثمان خالد على كتابة هذه القصص ؟

لعل الرغبة في إثبات الوجود الأدبي تكون سببا من الأسباب ، و لكن الذي يمكن أن أستشفه من قراءة هذه القصص أن الكاتب لديه جديد يمكن أن يضاف الى رصيد القصة الفلسطينية . وبداية فإن الموضوع الذي تعالجه القصص بشكل عام هو المعاناة الإنسانية في صور شتى ، أما البيئة التي تصورها القصص لتجسيد هذه المعاناة فهي البيئة الغزية - بحرها ويابسها - و الصياد هو الشريحة أو الأنموذج الذي تنعكس صورته على صفحات تلك البيئة بكل موروثها و مكوناتها ، وذلك بهدف إظهار أثر القوى و العوامل ، الثابتة و المتغيرة التي تحيط به - أي الصياد - ، و معرفة مدى تأثيرها على تصرفاته الحياتية في إطار زماني محدد هو عصر الإنتفاضة . وإذا كانت القصة بشكل عام ، و القصة القصيرة بشكل خاص قد إفتقرت لهذا اللون من الأدب - أدب البحر - فإن القاص عثمان خالد لم يكن تناوله لهذه الشريحة العريضة من شرائح المجتمع الفلسطيني ضربا من التطفل ، خاصة إذا ما بحثنا عن دلالات هذه القصص في الظروف الجديدة لبيئة الصياد و معاناته اليومية .

إن تراث البحر الفلسطيني لا يمكن أن يمسح من ذاكرته مأساة عثمان خالد أبوجحجوح ، فهي من أدق الخصوصيات التاريخية التي تختزن الى جانب مثيلاتها في ذاكرة الصياد الفلسطيني . قد تكون هذه المأساة من خصوصيات الكاتب ، وقد يكون إستشهاد عمه على شاطئ بحر عسقلان عام ١٩٤٨م على تلك الصورة المروعة أثره في توجيه الكاتب هذه الوجهة ، وقد يكون إستشهاد والده في المهجر الغزي عام ١٩٥٦م دور في تفعيل ذلك الأثر .. و لكن الوشائج ودلائل الإنتماء رغم إختفائها ظاهريا بين الكاتب و هذه الشريحة - فهو يعمل في سلك التعليم - تعكس لنا علاقة جدلية ومقدرة فائقة على سبر أغوار البحر و النفس البشرية المرتبطة به .

هجرة النورس الخريفية

ففي هذه القصة تتجسد مأساة الكاتب الخاصة من خلال مأساة بحرية عامة أفرزتها الظروف نفسها - الاحتلال - في بيئة زمانية مغايرة - زمن الانتفاضة - ، وما رفوف النورس المهاجرة إلا دليل على حالة القلق و عدم الاستقرار التي تعيشها تلك الشريحة من شرائح المجتمع الفلسطيني التي عانت كغيرها من شرائح المجتمع ، وما زالت تعاني من آثار هجرة عام ١٩٤٨م ، فالبحار الذي فقد معظم بحره مازال يعيش معركة قد لا تكون من أجل استرجاع المسلوب ، وإنما للمحافظة عل الباقي المتردد بين القيد و بين السلب ، ومن هنا اقترنت الهجرة بالخريف وما يحمل من رموز و إيحاءات . لذلك ففي ظني أن الكاتب قد أفلح في ربط الطبيعة بتناقضاتها - كما صورها - مع الحالة النفسية للصياد . وقد تداخلت المشاهد بكثافتها و سرعتها المدهشة و إيجازها الموحي ، و كأنها تجتاز بالقارئ أعماق النفس البشرية لتكشف ما يعتمل بها من المشاعر التي شكلها الماضي الجريح و الواقع المعاش . فنسمات الهواء الخريفية ، ورفوف النورس الحلزونية ، وموج البحر بزرقته و بياضه، و قرص الشمس بحمرته، و طيف والده الذي سقط شهيداً على شاطئ البحر ، و المناظر الساحرة للنوارس وهي تشارك الصيادين صيدهم . كل ذلك تجلى من خلال استرجاع تفاصيل الحدث - استشهاد والد الصياد سعيد- وتبرير وقوعه وزمانه . وفي خضم هذا كله تبدو براعة الكاتب في استقصاء عناصر القصة القصيرة و التزام إرشادات النقاد . فالقصة موجزة كما ينبغي أن يكون الإيجاز و هي في قوة تأثيرها و غزارة معانيها تبدو وقعا و حياة تلقي بظلالها على وجدان القارئ و فكره . وتترك الباب مفتوحا أمام عين و خياله .

لقد برع الكاتب في سحبنا مع عالم الصياد حيث عشنا معه رحلة صيد بحرية و تعرفنا على أدوات الصيد و طريقته ، و عايشنا حالة الصياد النفسية و ما يكابده ، فسرت في عروقنا حمية لا تختلف كثيرا عن حمية الصياد الذي يعاني جور قوانين الاحتلال التي تحول بينه و بين معشوقه المعطاء ، و تجلت من جبروت و طغيان المحتل أشكال تعكس تسلطه في اختراع القوانين وتسليطها على رقاب الصيادين و مقدرات حياتهم : " بس .. اسمع .. ممنوع دخول البحر شهرا كاملا ، قال ذلك مسئول حراسة البحر وهو يقف بميوعة وسط حراسه المدججين بصنوف العذاب ، يلوك القرار بسرور شديد أخلاط البحر فانفجر كبركان هائج " و إذا كان الاسترجاع الذهني للماضي قد بعث في القارئ دلالات واضحة حول الممارسات الاسرائيلية ، فإنه أيضا يضع القارئ في صورة البطل من الداخل ، فمأساة الماضي لا تنسيه حياة الحاضر ، ولا تثنيه عن مواجهة تلك الحياة ، فإذا كان والده قد واجه القرار قولا و فعلا : " ثلاثون يوما يا ظالم ، ساعة من التأخير تعني في مذهبكم شهرا .. " و دفع حياته ثمنا لتلك المواجهة ، فإن البحار سعيد يعلن استمرارية الحياة : " مسح عينيه ، مشى الى البحر ، وقف ود لو يدفن آلامه فيه ، لكنه انحنى و غسل وجهه و مضى صوب قرص الشمس "

قد يكون هدف القاص في هذه القصة واضحا على المستويين : المعنى المباشر ، و المعنى الايحائي فهي تسعى الى تأليب المشاعر ضد المحتل وممارساته التعسفية ، كما تشير الى عدم جدوى ذلك الشكل التقليدي من أشكال المواجهة مع المحتل ، حيث أمات القاص الأب الذي يمثل الشكل التقليدي ، ووهب الابن الحياة ليدلل على سمة التفاؤل و الاصرار على مواصلة التغيير الذي يغلف وجدان الفلسطيني ، وما حياة هذا الابن و استمراريتها الا ضرب من ضروب التدليل على حياة الشعب الفلسطيني و استمرار نضاله .

يتبع /...

هيه .. هيه الملك يمشي عارياً !

بقلم / أميل حبيبي

تذكرون حكاية " الملك يمشي عارياً " وهي عن ملك أوروبي أوهمه خياط ذكي أنه يستطيع أن يحيك له ثوباً جميلاً ولكن غير مرئي ، ففرح ملك الزمان الاوروبي هذا وطلب من خياطه أن يصنع له ذلك الثوب ، وبعد مضي عدة أيام جاء الخياط الى الملك وهو يرفع يديه أمامه كأنما هو يحمل ثوباً فضفاضاً ولا ثوب ، فسأله الملك المندهش : أين الثوب ؟ فادعى الخياط أنه بين يديه ولكنه غير مرئي ، فخلع الملك كل ثيابه وارتدى " الثوب " غير المرئي وأخذ يتمخطر أمام وزرائه وحاشيته ، ولم يجرؤ أي واحد منهم على قول الحقيقة ، وفجأة مر الملك من أمام جماعة بينهم طفل ، فصاح الطفل على السليقة : هيه ، هيه ، الملك يمشي عارياً ! تذكرت هذه الحكاية الاوروبية الذكية حين قرأنا عن الضجة الهستيرية المقامة ضد البروفيسور في الجامعة العبرية ، موشي تسيمرمان ، على تشبيهه أولاد المستوطنين في الخليل بالشبيبة الهتلرية في ألمانيا زمن النازية ، فالعديد من نواب " الليكود " والمفدال " وسواد المستوطنين يطالبون بدمه جراء رؤيته هذا الشبه المخيف ، وجرأته في التعبير عنه ، وهددوه بالويل والثبور مطالبينه بأن يتراجع عن أرائه . إلا انه أصر على موقفه ، وأنقل اليكم فيما يلي ، بعض أقواله في هذا المجال . قال ان التشبيه علا على لسانه مباشرة بعد جريمة باروخ غولدشتاين في الخليل وردود فعل أولاد المستوطنين في الخليل وأضاف ولا أعتقد أنهم وحيدون في هذا الموقف وقال : يوجد وسط متكامل ، في المجتمع الاسرائيلي ، استطيع أن أقرر بلا أدنى تردد أنه نسخة عن النازيين النظر الى أولاد المستوطنين في الخليل انهم يشبهون شبيبة هتلر تماماً ، يغسلون أدمغتهم منذ الصغر بالتحريض على العرب وعن اللاسامية وعن أن الجميع ضدنا ، ويحولونهم الى مرضى بجنون الملاحقة وانهم أبناء الجنس الأعلى ، تماماً مثل الشبيبة الهتلرية . يقيناً أن العربي الذي يموت تحت التعذيب أو يتعرض للرصاص بحجة حماية " حرية المستوطنين أو تنهب أرضه ويهدم بيته وتقتل طفلته بين يديه ، لا يهمه ان كان هذا التشبيه صحيحاً أو مبالغاً فيه ، تعددت الأسباب والموت واحد ! ولكن وجود أمثال البروفيسور موشي تسيمرمان في المجتمع الاسرائيلي ، الذين يجرؤون على تسمية الظلم باسمه هو أمر يشرف هذا المجتمع ويعزز الأمل الفلسطيني بممكنات التعايش السلمي وانتصار قضية الثقة المتبادلة ، وسيظل شعب إسرائيل مديناً لأمثال تسيمرمان من أبنائه الشجعان الذين يقولون للظالم إنك تمشي عارياً !